

الطقوس القبائلية بين خصوصية النسق الاتصالي ورمزية المضمون الدلالي

راشدي وردية

أستاذة مساعدة قسم - أ -

جامعة الدكتور يحيى فارس - المدينة-

ملخص

سنحاول من خلال هذه الدراسة التعمق في الأبعاد الدلالية للطقوس الشعبية القبائلية للولوج إلى المعاني العميقة التي تنطوي عليها، مع العلم أننا سنتعامل معها كأنساق سيميائية رمزية متعددة الدوال، تستلهم قيمتها من الفضاء السيميائي الذي يؤطرها، ويضفي عليها أبعاداً أسطورية قدسية وثيقة الصلة بخصوصية التمثلات الاجتماعية والثقافية للمجتمع الذي يحتضنها، وهي الأبعاد التي سنعمل على استنطاقها من خلال المقاربة السيميولوجية لمجموعة من السلوكيات والممارسات الطقوسية، وسيسمح لنا تحليلها باكتشاف مستويات الإنتاجية الدلالية فيها، وتحديد أشكال الاتصال والتواصل ورمزيته بين الفواعل في الأداء الطقوسي، للوصول فيما بعد إلى مستويات التوظيف الدلالي للعناصر الداخلة في هذا الأداء.

وهنا، نتحدد الكلمات المفتاحية في: الطقوس الشعبية، الأنساق السيميائية، الأبعاد الدلالية، العلامات الطقوسية، الرمزية.

Résumé

Les rites kabyles entre la spécificité du système de communication et la symbolique du contenu sémantique

On tente à travers cette étude d'analyser profondément les étendues sémantiques des rites populaires afin de pénétrer les différentes stratifications du sens qui les entoure. Sachant que nous allons les approcher tout en les considérant comme étant, d'une part,

des systèmes sémiotiques dont les signifiants sont multiples, et d'autre part, détenant leur valeur du champ sémiotique qui leur serve de cadre. Aussi ils seront envisagés par rapport aux dimensions légendaires qui apparaissent étroitement liés aux spécificités des représentations sociales et culturelles propres à la société qui les embrasse. Ainsi, il sera question d'interpréter ces dimensions en adoptant l'approche sémiologique qui toucherait l'ensemble des comportements et pratiques rituelles. Ce qui va nous permettre de révéler les niveaux de production sémantique qui s'y rattache. Ensuite, on pourra distinguer les formes de contact et de communication et leur symbolique qui se joue entre les partenaires autour de la performance assignée aux rituels en question. De là, on aura accédé aux niveaux de fonctionnement sémantique émanant des éléments intrinsèques relevant de ladite performance.

Mots-clés / Rites populaires - systèmes sémiotiques - Dimensions sémantiques- Signes rituel-la Symbolique.

مقدمة

تصنف الطقوس القبائلية ضمن سلسلة الأنساق الرمزية المشبعة بالدلالات والمضامين الأنثروبولوجية فهي تحاكي بأنماطها وتمثلاتها العديد من العناصر المحددة لبنية الفضاء الطقسي المؤطر لمختلف السلوكيات والممارسات الطقسية، كما تثرى دلالاتها عبر آلية الاتصال والتفاعل الرمزي بين الرموز والعلامات المؤلفة لهذه الطقوس.

لذلك، فإن البحث عن الأبعاد الدلالية للطقوس القبائلية يقتضي منا دراسة معمقة لخصوصية الاتصال والتفاعل الرمزي عبر الطقوس الشعبية القبائلية ويستلزم هذا مساءلة منهجية من نوع خاص نحاول من خلالها الجمع بين عمق التحليل السيميولوجي والذي نعالج من خلاله البنية الطقسية والنسق الطقسي بشكل عام في مستويين أساسيين لا ينفصلان هما : "المستوى التعييني، والمستوى التضميني"، والتركيز في الوقت ذاته على خصوصية التحليل الأنثروبولوجي، والتي لا تختلف كثيرا عن ما هو سيميولوجي، بقدر ما تدعم هذا التحليل وتثريه، من خلال استحضار البنية العميقة للمجتمع ومعايشته، والتفاعل مع مختلفة متغيراته، والتواصل برموزه وعناصر لغته وثقافته، وهو التحليل الذي يؤكد الثراء الدلالي لهذه الطقوس، من جهة، وللمجتمع الذي يحتضنها - من جهة أخرى.

بناء على ذلك، سنحاول من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على الاتصال والتفاعل الرمزي عبر الطقوس الشعبية القبائلية من منظور سيميوانثروبولوجي، وهو التحليل الذي سيستوقفنا عند ماهية الطقوس الشعبية من جهة، وخصائصها السيميولوجية والأنثروبولوجية من جهة أخرى، وسيكون هذا منطلقا لتحديد البعد الاتصالي للطقوس القبائلية.

1- خصوصية الاتصال والتفاعل الرمزي في الطقوس الشعبية :

ينطوي مصطلح rite على العديد من المصطلحات المجاورة له، والتي تسبح في حقله الدلالي نفسه، ومن جملة ما قدم في هذا الصدد كلمة

"التظاهرة cérémonie" والتي تدل على جملة منتظمة من السلوكيات الاحتفالية المشبعة بالدلالات الإيحائية الدينية، وهنا، أشار العديد من الباحثين، وعلى رأسهم "أرنولد فان جونيبي" "Arnold Van Genne"، أن كلمتي: "طقس" "rite" و"تظاهرة" "cérémonie" يتضمنان المعنى نفسه، وينطويان على الدلالة ذاتها¹.

هذا، ويتقارب هذا المصطلح مع مصطلح آخر يسمى "الشعائر" "liturgies" والتي تدل بدورها على أشكال مختلفة من السلوكيات والنشاطات والأعمال الخاصة بالآلهة، وبالعالم القدسي، بمختلف العناصر والفواعل التي تسبح فيه، وهي الدلالة التي تحتضنها، وتتبادلها العديد من الجماعات البدائية ومن ذلك قبائل: "تيكوبيا" "Tikopia" المتواجدة في جزر "السلمون" "Salomon"².

يرادف الطقس في الوقت ذاته معان أخرى، مثل العادات والتقاليد mœurs et coutumes على اعتبارها عناصر وثيقة الصلة بالمخيل الاجتماعي للجماعة البشرية، تتقاسمها الجماعة البشرية، وتتداولها بشكل قدسي، متوارث، واعتباطي، كما تعني كل أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي.

ويراد بذلك أن الطقوس الشعبية ممارسات اجتماعية مشتركة تتداولها الجماعة البشرية، وتؤديها في ظروف محددة، تعيد تحيينها وفقا للعناصر الرمزية المرتبطة بقدسية الطقس، والغرض من أدائه، وهي بذلك وثيقة الصلة بالمخيل الاجتماعي للجماعة البشرية، أو بمعنى آخر، الرأسمال الرمزي لها، حيث أن الطقوس، مهما كانت طبيعتها، جزء لا يتجزأ من المعتقد الشعبي، أو بالأحرى الثقافة الشعبية للجماعة البشرية، وهنا، يسعى الطقس في جوهره إلى تكرار واستدامة القواعد التي تثبته، ويعمل في الوقت ذاته على تكريس ديمومة الحدث التاريخي، الاجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده، وهو ما أكده "فان درلو" "Vander Lew" من خلال قوله أن الطقوس تعني في جوهرها: "إحياء وتحيين لتجربة مقدسة، فالطقوس من هذا المنظور أساطير تتحرك، لأن الأسطورة مؤسسة للفعل المقدس، حيث تسبقه وتضمن بقاءه، وهنا، فإن القيام بأي سلوك طقسي تجديد لتجربته الأولى".

وهنا، تتأكد العلاقة الوطيدة بين الطقس والدين، حيث يستلهم الطقس معناه ودلالته، والغرض من وجوده من الحدث الديني، والذي يمنح له القدسية والشرعية في الممارسة والأداء، الشيء الذي يؤكد أن الطقوس تأخذ معانيها عند الذين يستخدمونها على أنها فعل ديني، حيث تنطوي الطقوس في طياتها اتصالاً من نوع خاص، هو الاتصال مع ما هو مقدس، وهو الحافز الظاهر والمسيطر على النشاط الطقسي، يعبر عن حاجة الإنسان المتجددة للخروج من وضعه، كي يؤمن لنفسه المصالح المطمئنة باعتبارها تثق بمعتقداته، بقواه الخارجة عنه، الإلهية أو الجهنمية، وهنا تكمن أهمية الطقس المتمثلة في: "إنشاء علاقة حميمة ومعقولة بين عالم الحياة العادية، وعالم الأجداد والألوهيات الأسطوري".

لذلك، يتضمن الطقس غاية أساسية تتمثل في الاتصال والتواصل والتقرب من العالم المقدس، لتحقيق غرض أساسي تتمثل في إعادة التوازن النفسي، وخلق حالات من الاستقرار والتوازن الداخلي، ويتحقق ذلك من خلال صنفين أساسيين لا ينفصلان من الطقوس، هما الصلاة على اعتبارها طقساً شفهيًا، والأضحية كطقس عطائي، ودعامة أساسية لهذه الصلاة، وكلاهما ينطويان على أبعاد دلالية رمزية، عن طريقهما تتحقق شروط تأثيرهما الرمزية والدينية.

من هنا، يمكن القول أن الطقوس تعني في جوهرها قيام الأفراد أو الجماعات الاجتماعية بمجموعة أفعال رمزية ومشفرة، بهدف التعبير عن طائفة من المعاني التي يخترقها معنى رمزي، وتتنقيد إلى حد كبير بطابع هذا المحتوى وقوانينه، وغالباً ما تؤدي هذه الأفعال الرمزية المشفرة في مناسبات متلاحقة، محددة زمانياً ومكانياً، وهو ما يكسب الطقوس الطابع الصارم والمقبول، ناهيك عن الجمالية الخاصة التي تقحم مؤديها في عالم من القدسية، ويعايش هذا العالم طوال فترة أداء الطقس، ما من شأنه أن يعزز فيه البلاغة الرمزية.

2- العناصر التأسيسية لقدسية الطقوس الشعبية القبائلية :

تتميز الثقافة الشعبية القبائلية بكونها ثقافة طقوسية رمزية أسطورية، على اعتبارها تنطوي على العديد من الطقوس، المعتقدات

والدلالات والرموز الوثيقة الصلة بما يؤمن به الإنسان القبائلي وبالقدر الذي تتنوع فيه هذه المعتقدات يتنوع البعد الرمزي للطقوس الشعبية، ولبقية عناصر هذه الثقافة ويتسع حقلها الدلالي ليستوعب المزيد من التفسيرات والتأويلات، ومن جملة ما نجده في هذا المجال نجد:

أ- أصحاب الموت "الأخرة" at laxart :

يستند التفكير القبائلي الشعبي على فكرة جوهرية، تتمثل في أن الأحياء والأموات يختلطون في الحياة اليومية لهم علاقة وطيدة تفاعلية، وينسجمون في نفس الحركات والسلوكيات، ويتناسقون ذات الطقوس، لحد يكون فيه من الصعب الفصل بين نطاق الميت وسياق الأحياء، وإذا كان الميت ذا علاقة مع عالم أو جماعة الأرض وإذا كان الأحياء يشاركون في عالم الأشياء الغير مرئية³، من شأن هذا الالتباس أن ينقل في جوهره دوال التواصل اللامرئي بين الأحياء والأموات في المعتقد الشعبي القبائلي، وتبلغ قوة هذا التواصل إلى حد اعتبار الأموات أفراد آخرين من أصحاب المنزل، لهم حقوقهم ونصابهم وعليهم تدعيم الأعمال اليومية للأحياء بالبركة والنجاح.

معنى هذا أن الاتصال اللامرئي بين العنصرين يجعل الأحياء والأموات يعيشون في نفس الأسرة يتقاسمون نفس الوسائل المستعملة، ويكون الميت على الدوام عضوا من جماعة الساكنين في الأرض لحد يشبهون بين هذه الوضعية وحالة العامل المهاجر إلى فرنسا، إذ يبقى متضامنا مع ذويه، مقابل هذا، يعتقد الأموات أن بإمكانهم الاعتماد على التواجد المرئي للأحياء لاستكمال الطقوس والاستمرار عليها⁴.

هكذا، يكون للحداد رمزية خاصة في الأسرة القبائلية إذ لا يعد مجرد ظاهرة حزن عاطفية -فحسب- بل يمكن يمتد لأن يصبح نسقا تواصليا دلاليا، يتوجه فيه الإنسان عبر حركاته الرمزية إلى الموتى أو سكان العالم الآخر من أجل تدعيم التواصل وتحقيق التفاعل بين العالمين، حيث يدخل الأحياء عالم الشغل اليومي والنشاط من أجل الاستمرار،

بينما يواصل الأموات مسيرتهم في دعم الأحياء في هذا النشاط ومباركة أعمالهم وحراسة أموالهم وممتلكاتهم.

هكذا ظهرت "الأرواح الحارسة" المقدسة التي تسكن المنازل والحقول والصخور ومختلف الأماكن، وهذا ما يشير إليه القديس "أقستين" بقوله: "إفريقيتنا ليست كلها مزروعة بأجساد الشهداء المقدسين" ويؤكد هذا ويعترف بتواجد الطبول البيضاء والحراس الدائمين للمنازل والجبال.⁵

بناء على ذلك، يعرف الأمازيغ القدامى النشاط الطقسي بكونه: "مجموعة من النشاطات والحركات التي تكون في فحواها تقديسية ويكون منبعها الخوف، يلجأ إليها الإنسان القبائلي في المناسبات الحرجة الصعبة في العام استنادا على عقد خاص ومقدس موجود بين الأحياء والأموات ومن خلاله تتجلى ملامح الخضوع ودلالات الالتماس والترجي الذي عبره يطلب الأحياء من الأموات البركة والمساعدة في أعمالهم المختلفة".⁶

من جمله ما يطلبه الأحياء من الأموات خصوبة الأرض لتدر بغلة جيدة تكفيهم وأسرتهم العام كله ويطلبون منهم في الوقت ذاته خصوبة الأسطبلات لتتكاثر الحيوانات المتواجدة فيها من أبقار، ماعز وأغنام، كذلك يطلبون منها خصوبة المنازل ليكرمهم الله بذرية صالحة، وعلى الأموات في العالم اللامرئي تحقيق كل هذه الطلبات على اعتباره دين خاص لا بد من دفعه للأحياء مقابل الولائم المقامة على شرفهم، والتي من خلالها يتم تقاسم الغذاء كخطوة مهمة من خطوات تجسيد هذا العقد⁷، من هنا يتوضح البعد الرمزي للحياة والموت لدى الأمازيغ المتمثل في كونهما معا بعدين متكاملين لا ينفصلان يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر.

ب- رمزية الروح في سيمياء المعتقدات الشعبية القبائلية :

تؤسس سيمياء المعتقدات الشعبية القبائلية على فكرة أساسية تتمثل في أن جسد الإنسان تسكنه روحان، تجسدان توازنه وتتمثلان في⁸ :

- روح "خاملة"

- روح نشيطة متحركة تبعث الحيوية والنشاط تسمى بـ "rruh".

تحدد دلالات الروح الخاملة في نسق الأعمال والسلوكات الشعورية، لهذا يقال أنها تنتقل عبر الدم ومركزها متواجد في الكبد، بينما تكون الروح النشيطة وثيقة الصلة بالإرادة، يتحدد حقل نشاطها في العظام أما مركزها فهو متواجد في القلب⁹.

يمتد البعد التأويلي لهذه المعتقدات ليشمل حقلا تداوليا خاصا، يستوعب في دلالاته ميادين عدة للحياة اليومية، فلو تعمقنا أكثر في طبيعة الروحين ومميزاتها الدلالية، نجد أن الروح الأولى تتميز بكونها، ثابتة وساكنة، بينما تكون الروح النشطة ذكورية، جافة ومتحركة، ورغم افتراقهما بسبب الموت، يبقى هذان العنصران مرتبطان عبر الذكريات واشتراكهما في الاسم الذي يجمعهما في شخص واحد في عالم الأحياء¹⁰.

بناء على ذلك، يعرف الموت في سيمياء المعتقد الشعبي القبائلي على أنه افتراق وانفصال بين الروحين، ولا يكون هذا الانفصال أبديا، بل تبقى الروح الخاملة قريبة من الجسد لمدة من الزمن، ما يتوجب دفن هذا الأخير ليتحقق الانفصال التام، من شأن هذه الفكرة الرمزية أن تعلل طقوس الدفن المعتمدة في العديد من الديانات السماوية: "الإسلام" و"المسيحية" التي تتم ظاهرة الموت بدفن هذا الأخير.

أكثر من ذلك، لا بد على الأشخاص الذين يرافقون الميت لدفنه أن يسلكوا طريقا آخر أثناء عودتهم إلى القرية كي يضمنوا تضييع الروح الخاملة التي تتبعهم من وراء، لهذا، تسمح عملية الدفن بالفصل الحر بين الروحين، وتبقى الروح الخاملة على مقربة من الضريح أين تتواجد العناصر الغذائية والتهوية والضوء والماء.

في هذه النقطة بالذات، يمكن لما أن نجد تفسيراً لطقوس الدفن التي تقتضي ترك هذه العناصر على مقربة من قبر الميت، تقدم كذلك تفسيرات خاصة لمختلف المعاني الدلالية الخاصة بالطقوس الممارسة في

الجنازة، حيث أنه بعد ثلاثة أيام من دفنه، تذهب النساء لتثبيت تربة القبر وسقيها بالماء بعد زرع القمح فيها، أما في اليوم الأربعين، فيتم تحضير مأكولات خاصة للم أفراد الأسرة.

تحدد دلالاته السيميائية في معتقد خاص يقال فيه أنه في هذا اليوم، تتلخص الروح من عقباتها الأخيرة وتحتل مكانها الخاص ضمن الأجداد والأرواح الحارسة والملائكة "i3essasen"، بينما تبقى الروح الأخرى مثل الطير أو الفراشة، تحن إلى العائلية وتزورها من حين إلى آخر، وفي العديد من الأوقات، تلتحق بالروح الناشطة ليكونا معا سلوكا خارقا على شكل جن أو قوى غيبية¹¹.

تسمح هذه الصورة المرجعية الذهنية أن تدعم فكرة أساسية متداولة في عمق التراث الشفوي الشعبي القبائلي، يتعلق الأمر هنا باعتقاد الأمازيغ أن هنالك ظاهرة خاصة لزيارة الأرواح إلى المنازل، حيث أنها تحن إلى هذا الأخير تزوره على شكل فراشة سوداء لا يجب قتلها أو إيذائها إذ يقال عنها أنها روح الميت.

نجد من زاوية أخرى امتداد سيميائية هذا المعتقد ليشمل العديد من النشاطات الإنسانية والتي منها

"الحصاد" حيث يقال في المعتقد الشعبي القبائلي، أنه وثيق الصلة باليوم الأول للوفاة، تترك الروح الخاملة الجسد حين نزع السنابل من الأرض، لذلك تقام العديد من الطقوس وتتشد العديد من الأغاني النسائية ذات الدلالات الحزينة الوثيقة الصلة بأغاني الوفاة، كذلك تشبه هذه الطقوس في فحواها النوم والعلاقة الجنسية، لذلك غالبا ما يتم استحضار الروح وحراس الدار والأجداد لتبارك لهم بالصحة والخصوبة.

يعود السبب في انتشار هذا الاعتقاد في المعتقد الشعبي القبائلي إلى حقيقة كون القبر ليس ذلك المكان الذي تتحلل فيه الأجساد، إنما هو فضاء خاص تكون فيه روح الفرد ناشطة، والمجال الحيوي الذي يوحدتهم مع الأحياء ويتدعمون بنشاط هذه الروح وقوتها، وهو في الوقت ذاته فضاء رمزي يتم فيه استحضار الروح لطلب البركة الدعم والمساعدة. يقدس

الأمازيغ كلا من الشجر والحجر ومن مظاهر التقديس نجد بابا مقدسا يسمى بـ "tabburt n weslen" تتردد إليه الفتيات اللواتي يرغبن في الزواج ليقمن بربط أحزمتهن المصنوعة من الصوف على نبات خاص يسمى بـ "أوزو" ويرددن عبارات خاصة منها: "fkiyi d afrux"¹² تتحدد الدلالات السيميائية لهذا الطقس في نقطة أساسية تتمثل في كون هذا الباب مباركا، له القدرة على تغيير حظ الفتيات في الزواج وأرزاقهن بزواج صالح، وذلك من خلال التخلص من الأسباب التي ترغمهن على البقاء من دون زواج أو أولاد لفترة طويلة.

يكتسي رمزته في نفس الوقت من رمزية الباب الذي يدل على الفاتحة الجيدة، وكل ما هو إيجابي لهذا يقال في التراث الشفوي الشعبي القبائلي "أبواب الخير" أي "tibbura n lkhir"، تتعمق هذه الدلالة حينما نأخذ بعين الاعتبار العلاقة الدلالية بين هذا العنصر وكل من الحزام والنبات، حيث يدل الحزام في الثقافة الشعبية القبائلية على الخصوبة، السترة والشرف ويدل نبات "أوزو" على الرجل القوي، وعند امتزاج دلالات هذه العناصر تتبلور فكرة أساسية تتمثل في أن يكون الباب فاتحة خير من خلاله ترزق الفتيات بزواج صالح لحماية شرفهن وسترهن.

ومن طقوس عبادة الصخور توجه الناس إليها بأغصان الأشجار وفي أيديهم أواني مملوءة بالحليب والزبدة ليتم وضعها فوق هذه الصخرة ومن ثم الغناء والرقص حولها¹³.

من خلال تصفح الدلالات الرمزية لهذه الطقوس ورمزيتها، يمكن القول أن العبادة في التراث الشفوي الشعبي القبائلي تتوجه إلى كل هذه الأفكار الرمزية البسيطة في مبدئها، والتي تركز على القوى الخارقة والغيبية، على اعتبارها صور مرجعية وتمثلات اجتماعية، تستند على التجربة الشخصية للإنسان القبائلي ومع التداول والاحتكاك، توسعت هذه الصورة واكتملت معالمها الرمزية، وفقدت الجزء من درجتها الرمزية وأصبحت لها مستوى من مستويات الأيقونة النسبية المرتبطة بالتمثل الثقافي.

يتضمن هذا الطقس مستويين أساسيين، مستوى ظاهري متمثل في الدال المرادف للقراءة التعيينية عند "Roland Barthes"، يتحدد هذا الدال الظاهري في توجه تقديس السكان لهذه العناصر المرئية "أشجار، صخور، جبال...". لكن هذا الدال سرعان ما يتحول بالتحليل والتأويل إلى عنصر مجسد لفكرة رمزية "المفهوم الضمني"، أي المعتقدات، و تتعدى ذلك لتتوجه إلى حراس المنازل أو من يطلق عليهم "i3essasen n wexxam" والذين لا يمكن رؤيتهم في ذلك المكان، إنما تجسد رمزيتها تلك الصخرة أو الشجرة الخضراء¹⁴.

3- الأبعاد الضمنية لأشكال الاتصال عبر الطقوس الشعبية القبائلية :

يؤدي تعدد المعتقدات الشعبية إلى تعدد الدلالات الرمزية لمختلف العلامات الطقوسية، من هذا المنطلق، تتعدد الطقوس وتتوسع، فمنها ما هو خاص بالفصول المختلفة، ومنها ما هو متعلق بالمراحل العمرية، ونجد كذلك ما هو وثيق الصلة بأعمال الحياة اليومية، ومن بين هذه الطقوس نجد:

أ- الطقوس والممارسات الخاصة بالفصول المختلفة ودلالاتها الرمزية:

طقس يناير "ixf n usegga" :

يسمى أيضا "باب العام"، "tabburt n useggas"، تقام هذه المناسبة يوم "01 جانفي" من أجندة "Julien" المقابل لـ "13 جانفي" من أجندة "Grégorien"، تتميز بكونها حفلة موسمية خاصة بالتجديد الموسمي، تتجسد الدلالة المرفقة بشهر يناير في أنه، و مثلما يكرم الأفراد قدومه بالتجديد في العناصر المنزلية ويفرحون لهذا القدوم بقطف النباتات الخضراء، كذلك يفرح الشهر بهذا التقديس من خلال نشره الخصوبة والتجديد الإيجابي في حياة الأفراد¹⁵.

لم تأت هذه الدلالات من العدم، بل تم استتطاقها من الأسطورة المرتبطة بهذه المناسبة والمتعلقة بالتاريخ الأمازيغي حيث بدأت هذه الطقوس الاحتفالية من عمق حادثة انهزام المصريين القدامى على يد القائد الأمازيغي "ششناق" واعتلائه على العرش الفرعوني عام 950 ق م بعد انتصاره على الملك "رمسيس الثالث" في معركة دارت رحاها في منطقة "بني سنوس"، بالقرب من "تلمسان" انطلاقا من هذه المحطة التاريخية، بدأ

الأمازيغ يخلدون ذكرى هذا الانتصار وأصبح هذا الشهر رأساً للسنة
الأمازيغية ومنه انبثقت الشهور والفصول الأمازيغية*.

يقدم الأمازيغ الأول من يناير تقديساً خاصاً، ومن مظاهره استحضر
العديد من الطقوس الرمزية والتي تكتسي في ظاهرها طابعاً احتفالياً خاصاً،
لكنها في عمقها تتضمن العديد من المعاني الرمزية، من مظاهر هذا
التقديس، تحضير مأكولات مميزة يهدف الإنسان من خلالها إلى التقرب من
الأرواح المقدسة والبرهنة على احترام حرمتها وتجديد الإيمان بها لهذا
تكتسي المأكولات المحضرة في هذا اليوم بعداً رمزياً متمثلاً في الخير
والتخلص من الجوع والتفكير في المستقبل من خلال إحداث التغيير الإيجابي
في الأسرة واستقبال الأقارب والقوى الغير مرئية بحرارة وفرح¹⁶.

تدعيماً لهذه المعاني القدسية، تقوم الأسرة القبائلية بتحضير عشاء
خاص بيناير يسمى في التراث الشفوي القبائلي بـ "imensi n yennayer" يتم
ذبح ديك يسمى بـ "أسفل" في حديقة المنزل تفاعلاً برمزية هذا الطقس، حيث
أن إسالة الدم في الحدائق يرمز إلى تدفق الخير الوفير من خلال تساقط
أمطار غزيرة وقوية مثل قوة هذا الدم، وتسقي التربة لتثمر بالخيرات مثلما
يسقي هذا الدم الأرواح الخيرة التي تسكن في هذه التربة لتدعم
خصوبتها¹⁷، يدعم المعتقد الشعبي القبائلي حقيقة امتلاك الأضحية القدرة
على دفع الضرر عن المنزل وأهله.

وقد أخذ هذا المعنى الرمزي من خلال ما يشير إليه التراث الشفوي،
حيث ذكر أن يناير يحبذ هذه الأضحية ويقول: "من استقبلني في هذا اليوم
بالريش، سأضمن له العيش*" معنى هذا أن هذا الشهر يحبذ أن يفرح بقدمه
الناس ويبينوا هذا الفرحة بتقديم أضحية خاصة بهم، تكون من صنف الطيور
ليضمن لصاحبها ولأهله العيش بعدد الريشات المتوفرة في جسد هذا
الطائر¹⁸ عادة ما يتم ذبح ديك ليفدي روح الذكور الساكنين في المنزل
ودجاجة لفاء روح النساء وديك ودجاجة ب النسبة للمرأة الحامل تفاعلاً بأن
يكون الطفل الذي في بطنها ذكراً يحفظ اسم العائلة من الزوال والانقراض.

يحضر هذا العشاء في فترة متأخرة، حيث يعتقد الأمازيغ أن أبواب السماوات تفتح في هذه الفترة ولا بد من استقبالها بالخير ليدوم هذا الأخير طوال العام، يتم تناول هذا العشاء بصفة جماعية مثلما تخصص حصص خاصة بالفتيات المتزوجات الغائبات عن هذه الحفلة، توضع على الطبق ملعقة خاصة لتحديد وجودهن، ولا ينسى في هذا السياق تخصيص حصص للحراس والقوى الغير مرئية وذلك بوضعها في مدخل الباب "amnar n waxxam" وفوق الأحجار الثلاثة للكانون "inyen"، وعلى جذع أشجار الزيتون القديمة. كما يتم وضع حصص خاصة في مكان المنسج "tasga" الذي يتم نزعه من مكانه كي لا تختبئ بين خيوطه الأرواح شريرة التي تؤذي الأطفال¹⁹.

يمكن قراءة هذه الطقوس استنادا على رمزية العناصر المرتبطة بها، حيث أن تناول العشاء بصفة جماعية وتخصيص حصص الفتيات المتزوجات يحمل في طياته معاني، تتمثل في التفاؤل بأن يسمح يناير بلم أفراد الأسرة على الدوام، وإدامة الخير والمشاركة بين أفرادها ليعم الاتحاد والتآخي، فمثلما يتحد الأفراد للاحتفال بعودة يناير يبارك يناير هذا التجمع ويجازي أفراده من خلال تدعيم الخير والبركة بينهم. لا يمكن أن تتدعم هذه العناصر من دون إشراك الأرواح الغير مرئية التي تسكن المنازل، و التي تسكن أماكن خاصة مقدسة في العمران الداخلي لهذا الأخير والمتمثلة في: "أمنار، الأحجار الثلاثة للكانون، ثاسقة، أشجار الزيتون المقدسة، المنسج" ويتعمد أن تكون هذه الأشجار عريقة تفاقولا بأن تطيل الأرواح الخيرة التي تسكنها عمر أفراد المنزل يمثل العمر الذي تعيشه.

لا تنحصر الأبعاد الدلالية لهذا الشهر في نطاق الممارسات الطقوسية، بل تتوغل هذه الأخيرة في عمق العناصر الغذائية المستعملة في هذه الوجبة، والتي لم يتم انتقاؤها بصفة اعتباطية، بل استنادا على مفاهيم إيحائية خاصة تكتسي رمزيتها من رمزية الثقافة الشعبية القبائلية، فجميع هذه العناصر يستعمل في شهر الزرع، حيث أن اليوم الأول من يناير يتواءم ونهاية الزرع، ويكون علامة من علامات منتصف الشهر الرطب.

من هذا المنطلق يتم طبخ هذه المأكولات في الماء أو عن طريق الفوار، مثلما تحضر مأكولات يكبر حجمها مثل "الخبز، الكسكس، الفطائر"

وهي كلها عناصر إيجابية لها دلالات خاصة، تتمثل في أنها رمز من رموز النماء والكثرة، فمثلما يتزايد حجم هذه المأكولات وينمو، كذلك تنمو خيرات المحاصيل الزراعية وتتزايد، ليعم الخير والبركة في المنزل الذي يستقبل يناير بها²⁰.

من خلال ما تم الوقوف عنده، يمكن القول أن شهر يناير يرتبط بالعديد من الدلالات التي يمكن استقراؤها من خلال التحليل السيميولوجي للطقوس الممارسة فيه، تتمثل هذه الأخيرة في كونه رمز من رموز دوام العيش وطوله، وهو بذلك أحسن مناسبة لأداء العديد من الطقوس العائلية والتي منها نجد²¹ :

- إذا ما صادفت هذه المناسبة ميلاد طفل في الأسرة القبائلية، يقوم رب الأسرة بشراء رأس ثور وذلك لإبعاد القوى الشريرة عنه وضمان عيشه ليصبح سيد قبيلته وعشيرته.

- في الأول من يناير، يقام أول قص لشعر الأطفال الصغار، حيث يشبه الطفل في الثقافة الشعبية القبائلية الشجرة التي تكبر بسرعة عند تخليصها من الأعشاب والأغصان الضارة، كذلك يكبر وتقوى صحته عند تخليصه من الشعر الطويل الذي يعيقه عن النمو، يغتم الفلاح قدوم شهر يناير لتقليم العديد من الأشجار كما تقوم المرأة بتغيير أحجار الكانون الثلاثة "inyen" لضمان التجديد في الحياة اليومية للأسرة القبائلية²².

- تقوم المرأة بتنظيف كل أرجاء المنزل بواسطة خليط خاص تصنعه من الفرينة والزيت والملح، وبعدها يتم كنس جميع الأرجاء لمطاردة ما يسمى بـ "tamghart n yiraseggas"، أو "عجوز العام السيء" ويمكن تأويل هذا الطقس من خلال الاستعانة بتفسير هذه العناصر، فعجوز العام السيء يقصد بها الجوع والفقر، بينما تدل العناصر التي صنع منها الخليط على النعمة والخير الوفير. معنى هذا أن الأفراد يتفاءلون من هذا العام أن يدفعوا الضرر والفقر والجوع عن المنازل من بواسطة هذه العناصر التي تعد من أهم ما يعيش به الإنسان في هذه المنطقة، ولها القدرة -حسب اعتقادهم-

على مطاردة الأعمال السيئة للساحرات والفال السيء بالنعمة التي يجسدها الزيت والفرينة والوقاية التي يضمنها الملح²³.

- يتميز شهر يناير بعودة الأرواح الميتة الحاملة لقوى الخصوبة، لذلك لا يجب على النساء طوال هذه الفترة ارتداء الحزام "agus" للحصول على خصوبة هذه القوى، مثلما تمارس العديد من الطقوس للتخلص من العقم²⁴.

- الطقوس والممارسات الخاصة بالربيع ورمزيتها:

يعرف الربيع في الثقافة الشعبية القبائلية بأنه فترة انتقالية، وهو فترة خطيرة من الناحية السحرية، تكتسب هذه الرمزية من خلال تموضعها بين فصل الشتاء والصيف، أي بين الفترة الجافة والفترة الرطبة، من هذا المنطلق، نجد واحدًا من الفصول التي تكثر فيه الطقوس التالية:

أ- طقوس اليوم الأول: تتفق تقاليد البحر المتوسط على أن فصل الربيع يبدأ يوم "15 فيفري من عام Julien المقابل ل 27 فيفري من عام Grégorien" يسمى الربيع في القبائلية بـ "tafsut" وهو مشتق من الجذر fs الذي يعني الإزهار كذلك يقصد بكلمة "tafsa" أو "nafsa" المرأة التي أنجبت حديثًا.

من هذا المنطلق ينطوي الربيع على دلالة سيميائية خاصة الثقافة القبائلية، تتمثل في الخصوبة والتكاثر، لذلك وتفاؤلاً بهذه الرمزية، تمارس النساء طقوساً احتفالية تستهلها بوضع الحناء في أيديهن وعلى شعرهن وأرجلهن، كما ينهضن في الصباح الباكر بالنشاط والجدية في العمل، يحضرن "lesfendj" كأول غذاء يتم تناوله في هذا اليوم، حيث أن لهذه المأكولة معنى رمزي إيجابي في الثقافة الشعبية القبائلية، يتمثل في النماء والخفة والنشاط، لذلك يقال أن من تناولها في اليوم الأول من الربيع، سيجدد أيامه بالحيوية والنشاط.

لتحقيق هذا، لا بد-حسب المعتقد الشعبي القبائلي- من التقرب إلى الأرواح المقدسة والحصول على بركتها، ودعمها من خلال وضع القليل من العجين فوق كل حجر من الأحجار الثلاثة للكانون "inyen" وفوق مدخل المنزل "amnar"، يحقق هذا السلوك الطقسي نوعاً من التواصل ما بين

الأفراد والعناصر المقدسة التي تشاركهم المجال نفسه، ومن خلال هذا التواصل الرمزي يحصلون على بركتها ودعمها في مختلف أعمالهم. مقابل ذلك، من المحبذ تجنب قتل الكسكس، تفاديا لتكاثر النمل والحشرات المضرة بعدد حبات الكسكس، حيث أن لهذا الأخير رمزيته الخاصة في الثقافة الشعبية القبائلية والمتمثلة في النماء والتكاثر، فيقال في التراث الشفوي الشعبي "يتكاثر مثل الكسكس" دلالة على النماء والتكاثر، مثلما يتفادى الأفراد وضع البيوض للفقص لنفس الأسباب.

يمارس الفلاحون طقوسهم الإحتفالية ومن مظاهرها أنهم يذهبون إلى الحقول لملاقة الربيع، يسمى هذا الطقس في الثقافة الشعبية القبائلية "ملاقة الربيع". ينطوي هذا السلوك الطقسي على دلالات خاصة، تتمثل في أن استقبال الربيع في هذا الفضاء المقدس يجعل حراس الحقول يفرحون بهذا القدوم مما يقربهم إلى مباركتها وإحلال النعمة والنماء في مختلف المزروعات والأشجار، تتعمق هذه المعاني الدلالية حينما تربطها بالطقس المكمل والمتمثل في رجوع الأطفال محملين بأزهار الربيع المسماة بـ "زهور النبي ص" وينشدون أناشيد وأغاني شعبية خاصة بهذا اليوم²⁵.

يتم استكمال قدسية هذه المناسبة من خلال ممارسة طقوس وقائية، من بين هذه الطقوس، تناول حساء مصنوع من الفول المحمص والثوم والبصل ومعطر بالأعشاب البرية الربيعية التي يقطفها الأطفال في الغابة، حيث يحمل هذا الطبق المسمى بـ "takebbalt n ibawen" دلالات رمزية مستوحاة من الفول المحمص الذي يقال عنه أنه يبعد الضرر ويحافظ على الأطفال من الأمراض وأعمال السحر المدبرة من قبل النساء المسنات، ومن المحبذ صنع هذا الغذاء بعيدا عن المنزل وعن الكبار لضمان نموهم الجيد ودفع خطر القوى السحرية²⁶.

يصنع في نفس اليوم غذاء آخر يسمى "tahrirt"، وتعتبر من الأكلات الرمزية الخاصة بطقس الربيع وهي عبارة عن حساء مصنوع من الدقيق، يدهن بالزبدة، تلتزم أغلبية الأسر بطبخ كسكس خاص يسمى بـ

"tameqfult n uderysis" وهو عبارة عن كسكس تم طبخه ببخار نبات يسمى ب "aderyis" *والذي فيه يتم غلي البيض، ويجتمع جميع أفراد الأسرة لتقاسم هذه الوجبة أما النبات، فلا يأكله إلا المرضى ويرمى الماء الذي يغلى فيه على مدخل البيت و"agudi" وجذوع الأشجار لقتل الحشرات والنباتات المضرة ومنع تكاثرها²⁷.

تحدد رمزية هذه الأكلة من رمزية الكسكس، على اعتباره الوجبة التي تجمع الأفراد وتوحد بينهم في السراء والضراء لما لها من القدرة على لم الأسرة حول قصعة واحدة، وهذا ما نجده في العديد من الدراسات التي عالجت دلالة الغذاء في الثقافة الشعبية القبائلية حيث أشارت "Rosalia Bivona" أنها الوجبة التي تتضمن مفعولا سحريا من شأنه أن يدعم التواصل بين الأفراد والجماعات في الأسرة القبائلية²⁸.

في نفس هذا اليوم المقدس، لا بد على الراعي أن يأخذ احتياطاته كي لا تسرق الساحرات الحليب بأعمالهن السحرية، وتحويله إلى الحيوانات الأخرى، ومن جملة ما يتم تفاديه أخذ روثها من قبل هذه الفئة تفاديا لزوال الزيدة في الحليب الذي تدر به²⁹.

تمارس ربة المنزل في هذا الشأن طقوسا خاصة، تتضمن معان رمزية متمثلة في الحفاظ على الحليب من مختلف النشاطات السحرية، تتحدد هذه الطقوس في قيامها عند خروج القطيع إلى المرعى بأخذ سكة المحراث ووضعها في الجهة اليمنى للباب، وعلى مقربة منها، تضع المشط المستعمل للنسيج تشعل نارا صغيرة بواسطة روث البقر الجاف، ولا تطفئها إلا بعد ثلاثة أيام وتردد وفي يدها منجلا من الحديد³⁰ :

يا منجلي، يا منجل الآخرين! a yemgher-iw a yemgher n wiyad!

المنجل الذي وضعه الفلاح في حزامه! yewwi d ufellahdegammas!

سأحافظ على زبدتي! ad d herbaghghefudi-yiw!

من اللواتي يرتدين مقياسا! ghaf sat umeqyas!

لو حاولنا الوقوف عند الدلالات الرمزية لهذا الطقس، ألفينا أن المشط والمحراث لهما وظيفة رمزية في الثقافة الشعبية الأمازيغية تتمثل في دفع العين الحسود، ومنعها من الدخول إلى المنزل، لهذا توضع على مقربة من الباب لدفع هذه القوى الشريرة، تكتمل هذه الدلالة حينما نربطها بالسلوك الطقسي الذي يليها، حيث أن إحراق روث الأبقار الجاف يرمز إلى جفاف السحر الذي تمارسه هذه الفئة، وإذا ما تم ربطه بالنار، فإن دلالة الإبطال تكتمل، حيث أن تنطوي النار في الثقافة الشعبية القبائلية على مفعول سحري يتمثل في إبطال مفعول الطقوس السحرية، وفق هذا توصل المرأة القبائلية رسالة أساسية تتمثل في: "سوف يتحول الروث الذي تسرقنه إلى كتل جافة تحترق فيه النار لتصيبك أنتن قبل إصابتي أنا به"³¹.

من هذا المنطلق، نستطيع الوقوف عند فكرة أساسية تتمثل في أن للربيع دلالة خاصة، تتمثل في كونه رمز من رموز الخصوبة، والتجديد، كذلك يشير إلى النمو وكل ما هو إيجابي في الحياة، إنه فصل مقدس يرقى إلى اعتباره فال خير على الأسرة والمجتمع.

توجد العديد من الطقوس والممارسات التي يجب تفاديها في هذا الفصل، وتتحدد في³²:

- لا يجب على المرأة تبيض المنزل لأن في هذه الفترة تتكاثر القوى الشريرة التي يمكن أن تتواجد في التربة المستعملة في هذه العملية.
- يمنع تناول النباتات البرية التي اعتاد الناس أكلها، حيث يمكن له أن يضر بالتربة التي كانت على الدوام مأوى للأرواح التي تختبئ فيها من الحرارة.
- من المحبذ تفادي شراء فخار جديد تفاديا لإدخال أواني لم تراعى فيها الشروط اللازمة للصنع، مثل تفادي الممنوعات من التربة.
- يمنع في هذا الفصل الزواج ويحضر الصيد كذلك.
- يمنع إعطاء النيران للجيران طوال هذه الفترة سواء في هذه الفترة أو في مناسبة أخرى كالولادة أو الوفاة حيث يعتقد أنه كلما تم إعطاء النار

يقترّب الموت من المنزل وإذا اقترب الموت من المنزل فإن هذا متعلق كذلك بموت السنابل والأشجار.

ج- الطقوس المستعملة لجلب الأمطار ودلالاتها الرمزية :

كثيرا ما يتعرض سكان المجتمع القبائلي للجفاف، وتصاب على إثره المزروعات والأراضي بالفساد لدرجة يلجأ فيها سكان القرى إلى ممارسة طقوس وتظاهرات خاصة لدفع هذا الضرر، ومن جملتها نجد :

- ذبح أضحية جماعية :

لاستكمال هذا الطقس الجماعي، يجتمع سكان العشيرة ويقوم كل من يمتلك أكثر من ثلاثة أغنام بالتبرع بكبش أو تيس ويتم ذبحها بصفة جماعية، كما يتم تقسيم اللحم بين الرجال وتسكب الدماء الخاصة بالأضحية أمام مقام مقدس أو صخرة مقدسة. تتمثل الدلالة الرمزية لهذا الطقس في أن الأفراد يقولون لهذا الحارس المقدس الذي تسكن روحه هذا الضريح : "إننا سقيناك أيها الطيب المقدس بدم أضحياتنا، وتبرعنا بلحمها في سبيل الأرواح والحراس المقدسين الذين يسكنون القبور الصخور الأشجار، فاسقنا أيها المقدس بالأمطار اللازمة لخصوبة الأرض ونمو السنابل واخضرار الزرع، فهو مصدر رزقنا، فألهمنا بركتك لترزق بها ونعيش في أمان".

إنه طقس عريق في المعتقد الشعبي القبائلي أشار إليها "هيروودوت" من خلال قوله أن الأمازيغ القدامى على اختلافهم كانوا يقدمون القرابين للشمس والقمر والعناصر المقدسة التي يعبدونها ويبدؤون ذلك بقطع أذن الأضحية ومن ثم يلقونها في منازلهم، وبعدها يذبحون الأضحية*.

يمكن لأضحية الربيع أن تكون إعادة لأضحية الخريف حيث يتم ذبح ثور أسود وتقسيم اللحم بين السكان والفرق الوحيد يتمثل في طبق الكسكس الذي يتم تقاسمه بين السكان في أخوة تامة، يطهى هذا الطبق بالفول الذي تم قطفه لأول مرة، حيث لا يتم استهلاكه إلا بعد

تقديمه في طبق طقوسي، هذا الأخير علامة من علامات أضحية الربيع، يتم تناوله في مكان مقدس للحصول على بركة الأرواح التي تسكن فيها، وبعد سيلان الدماء في الأماكن المقدسة، تساقطت الأمطار بغزارة، يعتقد الأفراد في هذه الظاهرة أن الأرواح المقدسة يمكن لها أن تستجيب للدعاء الجماعي للأفراد.

- عروس أنزارar n wanzar tislit :

يعتبر أنزار من أهم الطقوس المستعملة لجلب الأمطار في المجتمع القبائلي، وهو نموذج من السلوكات الطقسية التي تلعب فيها الصور الحركية والدوال الرمزية دورا جوهريا في الكشف عن صفحة من صفحات المعتقد الشعبي القبائلي، حولها البعد التداولي إلى أسطورة مقدسة ترجمت تفاصيلها الحركات الطقسية الممارسة في شأنها والتي وإن اختلفت تفاصيلها من منطقة إلى أخرى، إلا أنها في جوهرها ترتكز على مغزى دلالي واحد يتمثل في جلب الأمطار.

يتولى الأطفال مهمة أداء هذا الطقس في العديد من المجتمعات القبائلية، حيث يشاركون في تفاصيله ذكورا وإناثا، يستثنى منهم الأطفال اليتامى إذ يتواجد اعتقاد سائد يفيد بأن الله وضعهم على هامش المجتمع والنظام العام ومن ثم لا يمكن التفاؤل بهم إيجابا لجلب ما ينتظر من أمطار³³.

لعل السبب الرئيسي في التماس هذا الأداء الطقسي من هذه العينة إيمان الكبار في المجتمع القبائلي بزوال العديد من القيم الأخلاقية التي جعلت الناس في الماضي يجلبون الأمطار بسهولة بمجرد ممارسة هذا الطقس، وهي القيم التي تجتمع في صفة واحدة تسمى في القبائلية "niyya" لهذا يستعينون ببراءة الأطفال للحصول على شفاعاة الأرواح المقدسة ورحمتها ومن ثم الحصول على هذه الأمطار³⁴.

تتنوع الطرق المستعملة في هذا الأداء الطقسي وتتعدد ومن أهمها نجد:

بعدما يجتمع رجال القرية، ويتأكدون من ضرورة إجراء هذا الطقس، تشرع النساء الكبيرات في السن واللواتي فقدن أزواجهن في لم الأطفال عندهن، مثلما يقمن بصنع نوع خاص من الدمى يكون جسمها

ورأسها غراف كبير مصنوع من الخشب، ترسم فيه تقاسيم الوجه وبعدها تلف الغراف بلباس خاص بالنساء وبالعديد من الحلي الفضية، يحمل كل طفل دميته وينتقلون كلهم في جماعة من مكان إلى آخر وفي يدهم الدمية التي يرفعونها إلى السماء وينشدون تفاؤلاً بسقوط الأمطار³⁵.

يمر هذا التجمع على كل منزل حيث يتم فتح الأبواب وترمى عليهم كميات من المياه بعد إعطائهم القمح والبيض. تتحدد الدلالات الرمزية لهذا الطقس من رمزية العناصر المشكلة له، حيث أن المياه تشير إلى الأمطار ومن ثم وظفت في هذا الطقس تفاؤلاً بنزولها، أما فيما يخص القمح والبيض، فهما معا رمز للخصوبة، التكاثر والنمو، ويمثلان أهم الموارد الفلاحية التي يعيش عليها المجتمع القبائلي، ويراد بالاستعمال الوظيفي الرمزي لها التفاؤل بسقوط الأمطار والدعاء للأرواح المقدسة التي وإن استجابت له سوف تحقق الخصوبة في هذه الموارد الهامة لكل أسرة قبائلية.

يسمى هذا الطقس في العديد من المناطق القبائلية³⁶ وهي تسمية ذات أصل أمازيغي تدل على إله المطر، حيث يمارس الأفراد نفس الحركات والسلوكات الطقسية المذكورة سابقا، بيد أنهم يرددون ما يلي :

Anzeranzer أنزار أنزار

A rebbi s wittarazar يارب، اسقها حتى جذورها

D le3naya n nebbi l mextar بعناية النبي المختار

Aman aman i waqlib اسق الزرع بالماء الوفير

تتعمق رمزية هذا الطقس حين عودتنا إلى الأصل التاريخي لأسطورة أنزار، فكلمة أنزار ذات دلالة عميقة في تاريخ الأسطورة الأمازيغية، فهي إله المطر أي السماء والمطر يجسد السائل المنوي له، وتكون النجوم في مجملها زوجات له، بيد أن هذا الإله يحبذ أن تنتقى له زوجة في الأرض ليتم تزويجها وفق هذا الطقس كي تنعم الأرض بالمياه والأمطار الوفيرة³⁶.

توجد أسطورة متداولة في شأن هذا الإله، تعددت الأساليب الحكائية المتداولة في سردها، بيد أن مضمونها الدلالي لا يختلف في

شأنه، يتعلق الأمر هنا بفتاة جميلة الخلق اعتادت الاستحمام في بحيرة على مرأى إله أنزار الذي يراقبها من بعيد وهو الذي له القدرة على أن يتحول إلى هيئة إنسان، روي أنه وفي كل مرة نظر إليها ازداد إعجابه بها، لدرجة مخاطبتها طالبا يدها للزواج به، بيد أن هذه الأخيرة رفضته وهربت منه، وكعقاب لها، عمل أنزار على تجفيف البحيرة ومنه جعل كل شيء في الطبيعة جاف، هكذا عانى سكانها من الجوع والعطش، وخافوا من عواقب الجفاف على مزرعاتهم ومواشيهم، اجتمعوا وخرجوا بقرار التماس المساعدة من الفتاة حيث أقنعوها بقبول الزواج من هذا الإله، هكذا تزوج بها ورفعها إلى السماء وأصبح لها اسم "tislit" أي زوجة أنزار، مما ساهم في نزول الأمطار. منذ ذلك الوقت وفي كل مرة من كل عام، يتم انتقاء أجمل الفتيات زوجة لأنزار إلى أن أصبحت هذه الأسطورة مجسدة عبر هذا السلوك الطقسي الرمزي، والذي وإن اختلفت التفاصيل الدلالية له بفعل البعد التداولي، إلا أن مغزاه الدلالي لا نقاش في شأنه، حيث يستعان بهذا الطقس لجلب الأمطار ومقاومة الجفاف³⁷.

يتم إجراء هذا الطقس بطريقة أخرى في منطقة "بوزقن"، حيث تجتمع نساء المنطقة ويحضرن أكلة خاصة تسمى "tahrirt" تتناولها النساء بصفة جماعية، وذكر أنه عند تناولها ومن شدة الحرارة يتسبب العرق بصفة معتبرة، لذلك، تخرج النساء إلى الساحات، ويتضاربن بنبات خاص يسمى بـ "azegduf"، يتميز هذا الأخير يتميز بكونه يلسع الجسد لمدة 24 ساعة، ومن الألم تبكي النساء، وعند بكائهن الجماعي تتساقط الأمطار بغزارة.

يحمل هذا الطقس نفس الدلالات الرمزية للنماذج الطقسية السابقة، بيد أنه يمكن أن نضيف أن التفكير القبائلي الشعبي رغم بساطته وسذاجته إلا أنه يحمل في عمقه العديد من الأبعاد الرمزية المؤسسة وفق نموذج تشبيهي خاص، من خلاله تتجلى ملامح التعبير الرمزي الإيحائي. نجد هذا في تسبب العرق والبكاء الجماعي للنساء، والذي يشبهه هذا التفكير بنزول الغيث، ومن ثم تتوضح الرسالة المراد إيصالها عبر هذا السلوك الطقسي والمتمثلة في الدعوة لنزول الغيث الوفير، هنا لا نجد رسالة

لفظية، لكن الصورة الحركية جسدت المعنى ومثلته في جزئيته من دون أي تأسيس علمي، فهو مجرد خطاب شعبي بسيط في ظاهره، وعميق الدلالة في ضمنيته.

هنالك طقوس تمارس في مناطق أخرى، حيث تتولى المرأة جمع مجموعة من العناصر ذات الدلالة العميقة مثل: المشط المستعمل للنسيج، خيوط النسيج التي تتقاطع مع بعضها البعض، يتم سقيها بالماء وتوضع على سطح المنزل على مقربة من الباب، كما يوضع المحراث والفأس في الخارج مقابلين للسماء والنجوم بعد سقيهما بالماء أيضا.

تحدد دلالة هذا السلوك الطقسي في طلب الماء من السماء لتسقى به الأرض على اعتبارها رمز حياة المجتمع القبائلي، تتعمق هذه الرسالة المستقرة حينما نأخذ بعين الاعتبار البعد التأويلي للشرط المحدد لهذا الطقس، يتمثل في أنه لا يمكن أن تقوم بهذه العملية غير المرأة المتزوجة، هكذا نستطيع القول أن المشط المستعمل للنسيج رمز للخصوبة، كذلك الشأن فيما يتعلق بالخيوط المتقاطعة والتي تشير إلى التزاوج، وعند سقيها بالماء ووضعها في السقف، فإن هذه الدلالة تتعمق لتشير إلى ما ينتج عن هذا التزاوج من خصوبة، وهي صورة تتحدد رمزيتها في طلب الماء من السماء لتغمر الأرض التي تخدمها سكة المحراث، إذ لا يمكن للزرع أن ينمو دون سقيه، كما لا يمكن لسكة المحراث أن تتوغل الأرض وتحراثها من دون رطوبتها وخصوبتها، هكذا يتجسد المعنى الرمزي من اتحاد الصور البلاغية المرسومة في كل سلوك طقسي.

خلاصة

يتبين لنا من خلال ما تم ذكره، أن الطقوس الشعبية القبائلية رسائل ومضامين اتصالية، تساهم برموزها وشفراتها في تعزيز التفاعل الرمزي بين أفراد الجماعة الاجتماعية المتقاسمة لهذه الطقوس ناهيك عن كونها سيرورة اتصالية أدائية، لاحتوائها على كل عناصر العملية الاتصالية والتي وإن لم يصرح بقصديتها التبليغية، فإنها في تكامل عناصرها الدلالية تعزز المفهوم التكاملي للاتصال الطقسي، والمتمثل في كونه سيرورة تفاعلية رمزية تنطوي على كل عناصر العملية الاتصالية والتي تتحدد في الرموز والعلامات المشكلة للأنساق الطقوسية وتنمي دلالاتها عبر آليات مختلفة من التبادل التحاور، التفاعل والمشاركة المحاكاة والتقاسم، وهي كلها عناصر تأسيسية لكل اتصال وتفاعل طقسي، وللطقوس الشعبية القبائلية على نحو التحديد.

قائمة المراجع

- 1- Arnold Van Gennep, les rites de passage ,ed Picard ,Paris, 1981, p19
- 2- ميشال مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهواري، سعد عبد العزيز مضلوع، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص 611.
- 3- Jean Servier, tradition et civilisation berbère, éd Rocher, Monaco, 1986, p07.
- 4- Ibidem
- 5- Ibidem
- *i 3essassen n waxxam
- * Saint Agustin (23 نوفمبر 28/354 أوت 430) : عالم ميتافيزيقي وخطيب سياسي بلاغي، تعلم الإنجيل وأتقن الدين، اشتهر بالعديد من النظريات من بينها نجد : «الوقت والذاكرة»، «العمق المقدس للروح»، «نظرية الثالوث»، «مدينة الله»، تأثر بكل من «أفلاطون»، «أرسطو»، «الإنجيل»، وخلف العديد من المؤلفات من بينها نجد: «confession, la cité de dieu, de la trinité»
- 6- Ibidem
- 7- Ibid,p08.
- 8- Ibidem
- 9- Ibid,p09
- 10- Ibid,p,p10,11.
- 11- Ibidem
- 12- Ibidem
- * أزو genet : نبات شوكي جبلي اشتهرت به منطقة تيزي وزو ونسب إليها هذا النبات، يتميز بشوكه الحاد، وأوراقه الصغيرة الخضراء، يزهر في الربيع، ويعد بذلك علامة من علامات اكتمال هذا الفصل إذ تظهر صفراء ناصعة لتغطي جبال المنطقة.
- 13- Ibidem
- 14- René Basset, recherche sur la religion des berbères. revue de l'histoire de religions, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1910, p05.
- 15- IBIDEM.
- 16- MouhandAkliHaddadou,almanachberbère.aseggwas imazighen,ed inna-yas, 2002, p, p 01, 02.

* تلمسان: يعود اسم هذه المدينة إلى الأمازيغ، يعني معناها "tala yemsan" أي "العين التي زالت، واندثرت".

*"yennayer, furar, maghres, yebriir, maggu, yunyu, yulyu, ghect, ctember, tuber, unber ; dudjenber"

17- Youcef Marahi, Ephemerides de kabylie. taqbaylit ass s wass, editions du ministre de la culture, HCA, 2005, p12.

18- مقابلة مع السيد كروور محند أمقران، رجل مسن "73 سنة" من قرية أيت سملال، بلدية بوزقن، ولاية تيزي وزو، يوم 19 أفريل 2011، على الساعة الرابعة زوالا.

*win i yidiqublen s rric,ad s demnagh am3ic !

Jean Servier, tradition et civilisation berbères, op cit, p240

19- Ibidem

20- Ibidem

21- Ibidem.

22- Mouhand Akli Haddadou, almanach berbère, op cit, p101.

23- C Laouste-Chantreaux, op cit, p91.

24- Mouhand Akli Haddadou, op cit, p 103.

25- مقابلة مع السيدة كروور زويينة، امرأة مسنة من قرية أيت سملال، بلدية بوزقن، يوم 10 أفريل 2011، على الساعة الخامسة زوالا.

26- المقابلة نفسها، التوقيت نفسه.

* yettafruruy am seksu

* amagar n tefsut

* tixlal n nbi

27- مقابلة مع السيدة سناسل وردية، امرأة مسنة من قرية أيت سملال بلدية بوزقن 79 سنة، يوم 15 أوت 2010 على الساعة السابعة مساء .

28- المقابلة نفسها، التوقيت نفسه

* thapsia gramanica :

29- Jean Servier, op cit, p 242.

30- Rosalia Bivona, nourriture et écriture dans la littérature maghrébine contemporaine, étude de douze auteurs ,thèse de doctorat de lettre en littérature comparée, université de Cergy - pontoise, paris, 2006, p229.

31- Jean Servier, Ibidem

32- Ibid, p, p 142, 143.

33- Ibidem.

34- Ibidem

* Hérodote (424/488 ق م) :عالم تاريخ إغريقي، اعتبر من بين الأوائل المؤرخين له، من أهم مؤلفاته نجد "l'enquête en Grec"
* للتوسع أكثر، أنظر إياد يونس، معتقدات الأمازيغ،
الموقع <http://aytaghighuc.maktoobblog.com>

* nyya : يقصد بها النية الحسنة والقلب الصافي الخالي من كل أثر للكره، والحق، وهي صفة محبذة في الثقافة الشعبية القبائلية، ترادف في حقلها الدلالي البراءة.

35- مقابلة مع السيدة كرور زوينة، مقابلة سبق ذكرها.

36- <http://www.sous.com/modules/news/articles/tislituanzer/>

le 16/01/2011/15h

37- Ibidem

* بوزقان : بلدية من بلديات تيزي وزو، توجد في الجهة الشرقية، يراد بهذه التسمية، وأطلقت على رجل اعتاد البقاء في نفس المكان، وأطلقت التسمية عليه ون يزقان

* tahrirt : يراد بها "الحريرة" باللغة الدارجة، وهي صنف من أصناف الحساء الذي يحضر بالدقيق، فبعد غليان الماء الذي يوضع بداخله الملح، التوابل وقليل من الشحم، يضاف الدقيق تدريجيا ويحرك بغيراف صغير إلى أن يتحول على حساء، ويضاف إليه الفلفل الحار، أو التوابل الحارة، ويستعمل كعلاج وقائي للحمى.